المقتطف

الجزء الثاني من المجلد الثالث والستين

١ اغسطس (آب) سنة ١٩٢٣ — الموافق ١٨ ذي الحجة سنة ١٣٤١

الدكتور وديع برباري بك

في بداءة النصف الثاني من القرن الماضي اشتهرت مدرسة عبيه الاميركية في جبل لبنان بتعليمها مبادىء العلوم اللغوية والرياضية والطبيعية . ولما طلبنا فيها سنة ١٨٦٥ كان رئيسها المشار اليه بالبنان المرحوم رزق الله البرباري وهو عالم عامل فاضل تحيط به هالة من المهابة والوقار . قرأنا عليه مبادىء النحو والبيان والمنطق وكنا اذا عصت علينا مسألة رياضية نلجأ اليه فيحلها لنا على اسهل سبيل . وكان اعيان لبنان ينظرون اليه بعين الاحترام كما كنا ننظر نحن التلامذة . واقترن بسعيد ذلك بابنة وجيه من اكبر وجهاء لبنان ورزقا اربعة ابناء فربياهم احسن تربية . وتوفي الاستاذ برباري سنة ١٨٨٦ فانتقلت زوجته باولادها الى القطر المصري بعد ان تعلموا كلهم وتخرجوا في الجامعة الاميركية ببيروت وهم السيم برباري بك والدكتور وديع برباري بك واسكندر افندي برباري والاوكاتو وليم برباري . وكلهم اشهر من ان يعرّفوا في هذه العاصمة .

وقد خدم الدكتور وديع الحكومة المصرية ٢٧ سنة في مستشفياتها ولا سيما مستشفى الزقازيق الذي تولى رآسة التطبيب فيه فنظمهُ احسن تنظيم حتى صار يضرب به المثل في حسن الانتظام . وكان من اكثر الاطباء اعتناء بمرضاهُ ومن اوسعهم اطلاعاً في علوم الطب والجراحة فقلما طُبع كتاب قيّم في هذه العلوم بالانكليزية او الفرنسوية الا ابتاعهُ وتصفحهُ وقلما نُشرت مقالة ذات شأن في جريدة طبية الا اطلع عليها . او اخترعت آلة جراحية او استقصائية جديدة الا جلبها واستعملها . فجاري العلوم الطبية والجراحية في تقدمها المستمر . وكان يقرن العلم بالعمل ويتوسع فيه بما اوتي

من الذكاء وعنايته من الاختبار . وترى الآن في بيته مجموعة كبيرة جداً من الحصى التي استخرجها وقد شعر بعضها شطرين ليبحث في بنائها وتركيبها . ولا تتذكر اننا حادثناهُ في موضوع طبي او بيولوجي الاَّ رأيناهُ مطَّلعاً على احدث ما قيل فيهِ عارفاً منزلتهُ من الصحة . ولم يكن يكتفي بما يراهُ في الكتب والمجلات عمَّا يجدُّ في العلوم الطبية بل كان يقصد اوروبا كلما نال اجازة ليزور مستشفياتها وكبار اطبائها حتى يقف بنفسهِ على كيفية استعمال ما قرأ عنهُ . ولذلك كان الطبيب المعول عليهِ حيث يقيم ولاسيما بين الاوربيين من انكليز وفرنسويين وطليان ويونان هذا حيما كانت وظيفتهُ تسمح لهُ بالاشتغال خارج المستشفى

ولما كانت الاوبئة تنتاب البلاد كان يحاربها بكل ما اوتي من عزم ومهارة فلم يكد الطاعون يقتل مطعوناً من الذين عالجهم

ثم لما نشبت الحرب الكبرى وكثر ورود الجرحى والمشوَّهين الى مديرية الشرقية كادعملهُ ينحصر في تطبيبهم فساهم يد الجراح الماهر وخفف آلامهم بعلمهِ ولطفهِ وردهم الى الصحة فنال المدح والثناء من رؤساء الجيش الانكليز والفرنسويين والايطالية التي تعطي لمن يخدمهُ من كبار الاطباء

ومما امتاز بهِ خاصة تدقيقهُ في مراقبة سير الامراض وما يلمُّ بها . وترى مقالاتهِ في المقتطف عنوان التدقيق بما فيها من الجداول والنتائج . وآخر ما كتبهُ فيهِ سلسلة مقالات في السل والوقاية منهُ

وشعورهُ بما عليهِ من المسؤولية لمرضاهُ حملهُ على تأليف كتاب كبير في «مسؤولية الطبيب» لم يطبع بعدُ واهتمَّ ايضاً بجمع المصطلحات الطبية العربية فجمع كثيراً منها لكي يؤلف قاموساً طبيًّا بالعربية وبلغة اخرى افرنجية

ومما امتاز بهِ ايضاً الدعة والبشاشة وطلاقة الوجه فيشعر مريضهُ ان صديقاً يعالجهُ فتقوى ثقتهُ بهِ وبعلاجهِ . ولهذه الثقة فعل كبير في تقوية الجسم على مقاومة المرض كما لا يخفى . ويشعر ذوو المريض ان الطبيب الذي يعالج مريضهم عارف بحقيقة المرض وما يصفهُ لهُ من العلاج فتطمئنُّ نفوسهم ويعملون باوامرهِ

ولما عينتهُ الحكومة في مجلس الفحص الطبي (القومسيون الطبي) ثم في تفتيش المستشفيات اضطرَّ ان ينقطع عن معاطاة التطبيب فاسف معارفهُ الكثيرون وحسبوا انهم خسروا خسارة كبيرة لكن هذا المنع لا يستلزم الانقطاع

عن معالجة اقاربه من غير اجر كلما سنحت لهُ الفرصة فلم يكن يخيب طالباً منهم ولو حرم النوم وآخر ما فعلهُ من هذا القبيل انهُ طعّم اولادنا بالتلقاح الواقي من التيفويد فوق غيرهُ ولم يخطر ببالهِ ان يقي نفسهُ

والظاهر ان تفتيشهُ المستشفيات من اقاصي الصعيد الى اقاصي الوجه البحري في هذا الصيف الشديد الحر انهك جسمهُ وعرّضهُ لسموم الامراض فشعر بحمّى وتكسّر في اواخر الشهر الماضي على اثر ظهور خراج بين اسنانه فظن اخوانه الاطباء ان سبب الحمى شيء من التسمم في الدم وفحصوا دمهُ فاذا فيهِ مكروب التيفويد . ومن الاسرار الغامضة ان الذين ينقطعون للعلم والبحث يموت كثيرون منهم في عنفوان الشباب او سن الكهولة ولا ينجع فيهم علاج لضعف اعضائهم الرئيسة كالقلب والكبد والرئتين والكليتين . اهذا الضعف سببٌ ام هو نتيجة ؟ ذلك ما لم يجلهِ البحث حتى الآن . فكانت النتيجة المؤلمة التي جرحت قلوبنا وادمت عيوننا ان كليتيهِ لم تساعدا جسمهُ على افراز سموم الداء ورئتيهِ التهبتا فلم تساعداهُ على التنفس ففاضت روحهُ بين يدي اخوتهِ واخوانهِ الاطباء وغربت شمسهُ عند غروب شمس الرابع عشر من يوليو وصار الجسم الترابي عرضة للبلى مثل غيرهِ من الاجسام الآلية واما نفسهُ التي تربت وتهذبت وتعلمت وجمعت اختبار ثلاثين سنة فمن يستطيع ان يقول انها ستبلى وتفنى مع جسمهِ الترابي

دفنا هذا الجسم قبيل غروب اليوم التالي . سار في جنازتهِ جم غفير من اصدقائهِ من اعيان العاصمة وكبار الموظفين والاطباء والتجار الى الكنيسة الانجيلية الاميركية حيث صُلي عليهِ وابّنهُ القس ابسحق ابرهيم ذاكراً مآثرهُ ونزاهتهُ وتفانيهُ في معالجة مرضاهُ . ورثاهُ نسيبهُ اسعد افندي خليل داغر بابيات بليغة وصف بها اخلاقهُ الرضية ونوّه بشهامتهِ وصدق خدمتهِ للمرضى ومكافحة الادواء

ثم استأنف مشهد الجنازة سيرهُ الى المدفن في مصر القديمة وابنهُ هناك خليل بك ثابت رئيس جمعية المتخرجين من جامعة بيروت في القاهرة باسمهم فذكر علمهُ وروداعتهُ وادبهُ وفضل والدتهِ عليهِ وعلى اخوتهِ واصدقائهم وتلاهُ كاتب هذه السطور معزياً اخوتهُ بان اخاهم الذي تعلّم وعمل واشتهر بكرم اخلاقهِ ليس الجسم الذي مات ووارتهُ التراب بل هو النفس الحية التي انتقلت الى حيث شاء خالقها ويجب ان ننظر اليهِ كذلك ونشعر انه قريب منا ونستفيد من الاقتداء بهِ